

## 19 ينطلق الإصلاح من الابتدائي

### عقل الطفل أرض خصبة للتحصيل

عقل الطفل أرض جد خصبة، تحصد فيها غدا ما تزرع فيها اليوم. جودة المحصول مستقبلا مرتبطة بجودة البذور المزروعة اليوم و بالوقت المناسب لزرعها. و إن أهملتها فلم تزرعها أو زرعتها ببذور رديئة أو زرعتها ببذور جيدة و لكن في الوقت الغير المناسب، تُنبت حتما كما هائلا من النباتات الضارة. البذور بالنسبة لعقل الطفل هي البرامج و المناهج. و الوقت المناسب للزرع هو الصغر. صحيح أن بعض النوابع تكونوا في سن متقدمة و لكن حظ النبوغ يكون عاليا كلما بدا التكوين الجيد في سن مبكرة.

و ليس عقل الطفل فقط أرض خصبة. بل كذلك جسمه بالنسبة للرياضة. سر حصد بعض الدول للذهب و الفضة و النحاس في المباريات الدولية و منها الأولمبياد، يكمن بالضبط في إعداد أبطالها منذ نعومة أظفارهم بدروس جدية و بتمارين لا تختلف عن تلك التي يتلقاها الكبار، بل أعلى مستوى منها أحيانا بالنظر لقابلية الأجسام الطرية لتحملها. نفس الشيء بالنسبة لعقول الأطفال. مضامين الرسوم المتحركة على سبيل المثال، استخفاف بعقولهم. و البرامج و المناهج المدرسية المحاكية لمضامين الرسوم المتحركة ليست أقل استخفافا بنفس العقول. عقول الأطفال عطشى للفهم الجيد و المعقول لكل ما يحسط بهم و لما يعيشون من الأمور الجدية التي تعني الكبار. ما يعني الكبار يعني الصغار. و عقولهم ليست أبدا قاصرة عن استيعاب المعارف و العلوم الجيدة و الجدية. و حصر تعليم تلاميذ الابتدائي طيلة ست سنوات في تمكينهم من كفاية القراءة و الكتابة و العد، هو بمثابة زرع أرض خصبة بنباتات لا يرجى منها أي نفع.

### ليس هناك أطفال معجزة و لكن برامج تكوين استثنائية في سن مبكرة

غالبا ما نسمع عن أطفال نوابغ و معجزات. في الحقيقة هم ليسوا لا مختلفين و لا متميزين عن الكثير من أقرانهم. كل ما في الأمر أنهم خضعوا لتكوينات استثنائية ببرامج استثنائية بالنسبة لما يخضع له باقي أقرانهم. و لو كانت تلك البرامج الاستثنائية في بعض الأسر هي القاعدة بكل المدارس في سن مبكرة لأكل الأطفال لأصبح الاستثناء و النبوغ هو القاعدة و لما سمعنا لا بأطفال نوابغ و لا أطفال معجزات. نسبة النوابغ من بين كل الأطفال تصبح عالية بصفة عادية يوم تصبح البرامج الاستثنائية التي يخضع لها الأطفال المعجزات في سن مبكرة في وأوساطهم العائلية هي البرامج العادية بالمدارس الابتدائية. كثير من مشاهير العلماء تعلموا باستراق السمع من أحاديث المجالس العلمية المقامة في بيوتهم من طرف آبائهم. وجدوا فيها بالنسبة لعقولهم من العلم الجدي و الجيد ما لم يجده في المدارس.

### دليل من الواقع يشهد على أهمية انطلاق الجودة من الابتدائي

ما يميز المدارس الحرة و مدارس البعثات الأجنبية عن المدارس العمومية هي فقط البرامج و المناهج. و ذلك ما يفسر تميز مستوى تلاميذ التعليم الحر عن مستوى زملائهم بالتعليم العمومي. و هناك بعض الإعداديات العمومية التي - بحكم موقعها ببعض الأحياء من المدن الكبرى - تستقطب أغلبية تلاميذها من المدارس الابتدائية الحرة. مستوى التلاميذ بها متميز جدا عن مستوى تلاميذ باقي الإعداديات. معنى ذلك أن استفحال ضعف مستوى التلاميذ بباقي أسلاك التعليم العمومي، أصله فقط سوء انطلاقة تعليمهم و تكوينهم بالابتدائي. جودة المستوى بالثانوي ثم التعليم العالي رهين بتوفر جودة الانطلاقة بالابتدائي. و جودة الانطلاقة بالابتدائي رهينة بجودة و جدية برامجها و مناهجها.

وإذا ما أصبح المتفنون الإقليميون في المؤسسات التعليمية محاسبين عن نتائجها في نهاية كل سنة دراسية و مُنحوا في نفس الوقت حرية التصرف في البرامج و المناهج و في اختيار الكتب المدرسية، فسيكون من مصلحتهم الشخصية - على غرار نظرائهم بالتعليم لحر - استعمال كل نفوذهم من أجل توجيه كل الجهود في الاتجاه الصحيح و الحصول على النتائج المطلوبة.